

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين أما بعد :

قال رحمه الله تعالى :

[فصل (غزوة حنين) ؛ ولما بلغ فتح مكة هوزان جمعهم مالك بن عوف النصري ،
فاجتمع إليه ثقيف وقومه بنو نصر بن معاوية ، وبنو جُشم ، وبنو سعد بن بكر ، ويسير
من بني هلال بن عامر ، وقد استصحبوا معهم أنعامهم ونساءهم لئلا يفروا ، فلما تحقق
ذلك دريد بن الصمة شيخ بني جشم . وكانوا قد حملوه في هودج لكبره تيمناً برأيه . أنكر
ذلك على مالك بن عوف النصري وهجّنه وقال : إنها إن كانت لك لم ينفعك ذلك ،
وإن كانت عليك فإن المنهزم لا يرده شيء . وحرّضهم على ألا يقاتلوا إلا في بلادهم ،
فأبوا عليه ذلك واتبعوا رأي مالك بن عوف ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يغيب
عني . وبعث ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي فاستعلم له خبر القوم وقصدهم ، فتهياً
رسول الله ﷺ للقائهم ، واستعار من صفوان بن أمية أدراعاً ، قيل مائة ، وقيل أربعمائة .
واقترض منه جملة من المال ، وسار إليهم في العشرة آلاف الذين كانوا معه في الفتح ،
وألفين من طلقاء مكة ، وشهد معه صفوان بن أمية حنيناً وهو مشرك وذلك في شوال
من هذه السنة ، واستخلف على مكة عتّاب بن أسيد بن أبي العيص أمية بن عبد شمس
، وله نحو عشرين سنة] .

هذا فصل عقدة الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في ذكر غزوة حنين ، وهذه الغزوة وقعت على
إثر فتح مكة ؛ لأن فتح مكة كما مر معنا كان في رمضان في السنة الثامنة من الهجرة وغزوة
حنين كانت في شهر شوال ، فما أن فرغ عليه الصلاة والسلام من أمر مكة وترتيب الأمور
فيها وجعل عليها عتّاب ﷺ أميراً ؛ خرج عليه الصلاة والسلام بأصحابه إلى هوزان في حُنين
لمقاتلتهم ، وقد بلغ النبي عليه الصلاة والسلام أنهم تجهشوا وتجمعوا وتهيؤوا وجاءوا إلى هذا
الوادي وكانوا قد سبقوا النبي عليه الصلاة والسلام إليه وأخذوا أمكنتهم في الجبال وخلف

الأشجار ، واختبؤا معهم النبال والسهام واستعدوا مسبقاً لملاقاة النبي صلوات الله وسلامه عليه ومقاتلته عليه الصلاة والسلام ، فخرج إليهم ﷺ في هذا الوقت في شوال من العام الثامن للهجرة .

وحنين: وادٍ من أودية مكة يقع شرقها من جهة الطائف وجهة عرفات يُعرف الآن بوادي الشرائع .

قال ابن كثير رحمه الله : ((ولما بلغ فتح مكة هوزان جمعهم مالك بن عوف النصري ، فاجتمع إليه ثقيف وقومه بنو نصر بن معاوية ، وبنو جشم ، وبنو سعد بن بكر ، ويسير من بني هلال بن عامر)) ؛ فتجمعت منهم أعداد كبيرة لمقاتلة النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان القائم على جميع هؤلاء وتأمرهم وترأسهم مالك ابن عوف النصري ، ومالك هذا الذي عمل على تجميع هؤلاء وترعّم هذا الأمر من الله ﷻ عليه بعد غزو الطائف بالإسلام فأسلم ﷺ وحسن إسلامه وشهد بعض المشاهد مع أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ؛ شهد القادسية وشهد فتح دمشق.

قال ابن كثير رحمه الله : ((وقد استصحبوا معهم أنعامهم ونساءهم لئلا يفروا)) ؛ وقد كان هذا رأي رآه قائدهم مالك ابن عوف - رأى بأن يأتوا معهم بالنساء والذاري والماشية - وهو بزعمه يرى أنَّ المقاتلة إذا علموا أن وراءهم نساءهم وأولادهم وماشيتهم وأنهم إن فروا في القتال صار ذلك وبالاً ونكبةً عظيمة على الذرية والنساء والماشية ، لكنه أصرَّ على ذلك الرأي وفعل ذلك لئلا يفروا .

((فلما تحقق ذلك دريد بن الصمة شيخ بني جشم)) ؛ وكان رجلاً كبيراً طاعناً في السن لا يستطيع أن يحمل معهم السلاح ويقا تل ، لكنهم جاءوا به تيمناً برأيه لكبر سنه ، ومع ذلك لم يعتدوا برأيه ولم يأخذوا بمشورته

قال: ((وكانوا قد حملوه في هودج لكبره تيمناً برأيه . أنكر ذلك على مالك بن عوف النصري وهجنه)) أي : هجن هذا الرأي وعدّه رأي مستهجن ؛ أي رأي قبيح ورأي غير مسدّد .

((وقال : إنها إن كانت لك لم ينفعك ذلك)) ؛ يعني إن كنت أنت المنتصر لم ينفعك مجيء النساء والذرية.

((وإن كانت عليك فإن المنهزم لا يردده شيء)) ؛ إن لم تكن أنت المنتصر وحصلت الهزيمة فإن الإنسان إذا انهزم وخاف على نفسه لا يفكر في ذلك الوقت لا بنساء ولا بذرية ولا بشيء آخر ؛ وهذا فعلاً هو الذي حصل فر هؤلاء وتركوا النساء والذرية وكانوا غنيمة عظيمة للمسلمين .

قال : ((وحرّضهم - أي: دريد ابن الصمة - على ألا يقاتلوا إلا في بلادهم)) ؛ قال تبقون في بلادكم ، على اعتبار أنها محصنة ويعرفون أمكنتها جيداً ومتحصنين فيها .
((فأبوا عليه ذلك واتبعوا رأي مالك بن عوف ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده)) ؛ يعلن عدم رضاه بهذا الرأي ، فهو يوم لم يشهده أي أنه يومٌ ليس له رأيٌ فيه ولا يراه الفكرة فيه صالحة .

قال ((ولم يغب عني)) وفي رواية: ((ولم أغب عنه)) ؛ يعني أنا حاضر بجسمي وبشخصي موجود بينهم لكنني لا أرتضي من ذلك الرأي شيئاً .

قال : ((وبعث ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي فاستعلم له خبر القوم وقصدهم ، فتهياً رسول الله ﷺ للقائهم واستعار من صفوان بن أمية أدراعاً)) ؛ جاء في مسند الإمام أحمد أنها ثلاثين درعاً ، وصححه الألباني رحمه الله .

((وقيل : مائة . وقيل : أربعمائة)) ؛ وهذا فيه جواز الاستعارة من المشرك والاستعانة منه ببعض السلاح ونحو ذلك ، ومر معنا أن النبي عليه الصلاة والسلام استأجر في طريقه إلى مكة هادياً خريّتا لم يكن على الإسلام .

قال : ((واقترض منه جملة من المال ، وسار إليهم في العشرة آلاف الذين كانوا معه في الفتح)) ؛ وهذا أيضاً يبين همة الصحابة العالية في الانتصار لدين الله ﷻ والذب عنه ؛ فما أن فرغوا من فتح مكة إلا ويُدعَوُ إلا قتال آخر - وهو قتال هوازن - فهبُّوا مستجيبيين ، ولدعوة النبي ﷺ منقادين ومدعنين .

قال : ((وسار معه في العشرة الآلاف الذين كانوا معه في الفتح ، وألفين من طلقاء مكة)) ؛ طلقاء مكة أي: الذين قال لهم النبي عليه الصلاة والسلام في خطبة يوم الفتح ((ما

ترون أني صانعُ بكم ؟)) قالوا: كريم، وابن أخ كريم لا نظن بك إلا خيراً ، فجاء في بعض الروايات أنه قال: ((أذهبوا فأنتم الطلقاء)) فلقبوا من ذلك الحين بالطلاق .

قال: ((وشهد معه صفوان بن أمية حُنيئاً وهو مشرك)) ؛ شهد حنين وهو على الشرك ، وكان واقفاً في مؤخرة الجيش يراقب الأحوال وينظر ماذا يحصل وهو على الشرك بالله تعالى ، وكان قد أعار النبي عليه الصلاة والسلام الأدرع ، واقترض منه ﷺ بعض المال.

وأنبه هنا إلى أن صفوان ابن أمية لم يكن من النفر الذين أهدر النبي عليه الصلاة والسلام دمهم ، لكنه فر يوم الفتح وكان فراره خوفاً على نفسه ، لأنه كان زعيماً من زعمائهم وكبيراً من كبارهم وقائداً من قادتهم . ومر معنا أن عمير ابن وهب الجُمحي لحقه وردّه وأعطاه الأمان وجاء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فأمهله أربعة أشهر يتأمل في الأمر ويفكر فيه تلك المدة ولا يُتعرض له ، إلى أن منَّ الله ﷻ عليه وشرح صدره للإسلام فأسلم ﷺ .

ومن عجيب الأمر أن عمير ابن وهب الجُمحي كان إسلامه بعد غزوة بدر ، فلما رجعوا إلى مكة التقى عمير ابن وهب بصفوان ابن أمية وقال له : لولا أنني رجل فقير وعندي أولاد وأهل وأستبقي نفسي لأنفق على أولادي وأصرف عليهم لذهبت إلى مكة متسللاً إلى محمد ومتذرعاً بحاجة لي عنده يعلمها لأقتله ، فقال له صفوان : أولادك عندي وأنا متكفلٌ بهم مثل تكفلي بأولادي ، وشجّعته على هذا الأمر وأعطاه سيفاً له وسنّه وسمّه ، فأخذ السيف وأنطلق إلى المدينة يريد بهذا الانطلاق قتل النبي عليه الصلاة والسلام ، فلما رآه عمر أعلم النبي عليه الصلاة والسلام بخبره ، وأيضاً طلب من الصحابة أن يكونوا حول النبي عليه الصلاة والسلام حمايةً له ، فدخل الرجل على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ ما الحاجة التي جئت لها ؟ قال: جئت لكذا وكذا - ذكر حاجة كانت له - قال ما جئت لشيء آخر ؟ قال : ما جئت إلا لهذه الحاجة. قال: ولم هذا السيف؟ فأيضاً تعذّر بعذر . فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : لم تأت لشيء آخر؟ قال: لم آت لشيء آخر. قال : والذي اشترط لك صفوان ؟! فأدرك أنّ النبي ﷺ أطلعه الله على ذلك فرأساً قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وكان صفوان ابن أمية يتحرى الوافدين من المدينة يحملون له البشارة بهذه المهمة التي اطلع بها عمير ، ويخبر قريش يقول سيحصل هذه الأيام حدثاً عظيماً سُسُروُن به ويذكر من هذا القبيل، فاستأذن عمير النبي ﷺ أن يذهب إلى مكة ليدعوهم إلى

الإسلام ، فرجع إليهم بوجه آخر ؛ فهذا عمير أيضاً جعله الله ﷻ سبباً لإسلام صاحبه صفوان لما فر يوم الفتح .

قال ابن كثير رحمه الله : ((وذلك في شوال من هذه السنة ، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص أمية بن عبد شمس وله نحو عشرين سنة)) ؛ يعني كان صغير سن ؛ هذه واحدة، والثانية : إسلامه ﷺ كان يوم الفتح ، فولاه النبي عليه الصلاة والسلام مكة .

وهنا نلاحظ ملاحظة عظيمة جداً في السيرة : أن بعض أصحاب الحنكة والرأي وحسن التدبير في القتال والإمرة وغير ذلك كان عليه الصلاة والسلام فور إسلامهم يوليهم ولايات ؛ فهذا يكون قائداً ، وهذا يكون أميراً ، وهذا يكون والياً ، إلى آخره ؛ مما يدل على اطمئنان النبي عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الذين يمن الله ﷻ عليهم بالإسلام ، وفعلاً يكون هؤلاء أهلاً . فعتاب ابن أسيد ﷺ بقي والياً على مكة منذ ولّاه النبي ﷺ حتى توفي في نهاية خلافة عمر ابن الخطاب ﷺ .

قال رحمه الله :

[ومرو ﷺ في مسيره ذلك على شجرة يعظمها المشركون يقال لها ذات أنواط ، فقال بعض جهال الأعراب : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : " قلتهم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، لتركن سنن من كان قبلكم "] .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذه القصة التي حصلت في الطريق وهم في اتجاههم لحنين ، وعرفنا أن حنين خرج مع النبي ﷺ فيها أناسٌ حدثاء عهد بإسلام ، بعضهم أسلم له أسبوع أو أسبوعين ، يعني كانوا لوقت قريب أسبوعين أو حدودها على الشرك بالله ، فمن كان بهذه الصفة لا شك أنه سيكون يجهل حقائق من الدين كثيرة لا يعلمها ، وسيكون عرضة لأن يخطئ أو يطلب أموراً خاطئة تكون ناشئة عن جهل بدين الله . وهذا الحديث يرويه الإمام أحمد في المسند والترمذي عن أبي واقد الليثي ﷺ وذكر أنهم خرجوا مع النبي عليه الصلاة

والسلام إلى حين ثم اعتذر عن الخطأ الذي حصل منهم قال : ((ونحن حدثنا عهد بإسلام)) يعني إسلامنا جديد ، قال : ((فمررنا بسدرة يقال لها ذات أنواط)) شجرة للمشركين لكفار قريش يسمونها ذات أنواط من النوط وهو التعليق ، لأنهم كانوا يعلقون أسلحتهم على تلك الشجرة قبل المضيء للقتال تبركاً بها واعتقاداً منهم أن السيف أو السلاح إذا عُلق على تلك الشجرة يصبح مباركاً وبيارك فيه ، فكانوا يحرصون على قصد هذه الشجرة قبل القتال ويعلقون عليها السلاح طلباً للبركة ، إضافةً إلى ذلك كانوا يعكفون عندها ، والعكوف: هو المكث الطويل على وجه التعظيم والتدلل . فكان هؤلاء اجتمعت لهم عند هذه الشجرة جملة من الأخطاء منها : التبرك بها وطلب البركة منها لهم ولأسلحتهم ، ومنها العكوف عندها ومن المعلوم أن العكوف عبادة وقربة لا يتقرب بها إلا إلى الله ﷻ ، ومنها تعظيم تلك الشجرة تعظيماً لا يليق إلى بالله ﷻ .

فاجتمعت هؤلاء الشريكات لهؤلاء المشركين من كفار قريش ومن تشبه بهم في هذا العمل عند هذه الشجرة المعروفة عندهم بذات أنواط. فلما مر الصحابة من عند هذه الشجرة ورآها هؤلاء الذين هم حدثنا عهد بإسلام قالوا : ((يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)) يعني: حدد لنا شجرة أخرى تكون خاصة لنا نحن المسلمين نعكف عندها ونعلق عليها أسلحتنا تبركاً ونعظمها مثلهم . والسبب في طرحهم لهذا السؤال قدّمه أبو واقد الليثي رحمه الله قال : ((ونحن حدثنا عهد بإسلام)) يعني: إسلامنا جديد .

وهذا يستفاد منه أن المسلم الجديد لا تستغرب أسئلته الخاطئة ، لأنها نابعة من شخص لا يعرف حقيقة الإسلام، فمن كان يعمل في الجاليات مع المسلمين الجدد لا يستغرب أسئلته ، قد يطلب طلباً يريد فيه مثلاً شركاً بالله ، أو يريد فيه كبيرةً من كبائر الذنوب أو عظمة من الأمور العظام ؛ فينبغي أن يُترفق به وأن يُتلفظ معه، وأن يُحسن في التعامل معه ودلالته في الخير، وأن لا تؤخذ هذه الأسئلة من مثله مأخذها من الإنسان الفاهم المتعلم، لأنه حديث عهد بإسلام .

فلما قالوا ذلك وطلبوا هذا الطلب كبر عليه الصلاة والسلام تعظيماً لله ، وفي رواية: (قال:

سبحان الله) سَبَّحَ تنزيهاً لله لأن هذا مما ينزه الله عنه كما قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨] ، فالله ﷻ يُنزه عن شرك المشركين وباطل المبطلين ﴿ سُبْحَانَ

رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿﴾ [الصفات: ١٨٠-١٨٢] .

قال ((الله أكبر إنها السنن)) أي : الطرق ، والمراد بالطرق هنا : أي طرق من كان قبلنا ،
((إنها السنن)) أي : إنها الطرق التي كان عليها من كان قبلنا.

((قلتهم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)) ثم قال
: ((لتركبن سنن من كان قبلكم)) هذا خبر على وجه التحذير ، قاله عليه الصلاة والسلام
محذراً أمته وناصحاً ، فأخبر أن التشبه فيمن قبلنا حاصل وموجود ، حتى إنه قال عليه
الصلاة والسلام في حديث آخر ((لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى
لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ)) وجحر الضب من أكثر جحور الزواحف تلوياً ، بحيث
الذي يريد أن يصطاد الضب ويحفر عنه يصعب عليه أن يجده ، فيحفر حفرة متلوية وعويصة
ووعرة ولا يهتدى إليه ، بخلاف كثير من الزواحف تحفر حفرة مستقيمة وتقف الحفرة عند
هذا الحد أو التواء قليل . قال: ((حتى لو دخلوا جحر ضب)) يعني لو فعلوا أشياء ملتوية
وأشياء شنيعة وأشياء بغیضة وكريهة وعسرة ووعرة سيوجد في المسلمين من يتشبه بهم.

أحياناً - وهذا كثير في زماننا - بعض الكفار وهذا ينطلق من فراغ يعني قلبه خاوي من
إيمانيات من تدبّر من طلب ثواب الآخرة ؛ فتجد أنه ليس له مهمة إلا العبث في شكله
الظاهر يريد أن يملأ بذلك فراغاً ، ولهذا يكثر فيهم أنواع من القصص لشعر الرأس بعضها إذا
رأها الإنسان يكاد يستفرغ من قباحتها ، وأيضاً فيها وعورة وصعوبة أو تكلف وصرف أموال
إلى آخره ، ثم تجد في أبناء المسلمين من يتشبه بهم تماماً ويحاكيهم في أفعالهم تماماً . قل مثل
ذلك في اللباس ؛ يفعلون أموراً قبيحة جداً وفيها إضاعة للمال وفسق ظاهر، وتجد في الوقت
نفسه من يتشبه بهم بكثرة . وأمثلة أيضاً لذلك بمثال : كان بعض الشباب الذين هم على
بعض الفسق - أصلحهم الله وهدانا وإياهم إلى كل خير - إذا رأوا بعض المتدينين يرفع إزاره
فوق الكعب قليلاً أو شبراً أو نحو ذلك يسخرون منه ويتهاكمون بتصرفه ويلمزونه ويهمزونه ،
ثم هؤلاء الهمّازين اللّمازين بعد وقت من الزمان جاء ما يسمى بموضة عند الكفار لبس

بنطال إلى نصف الساق أو أسفل من الركبة بقليل ، فتبعوهم بدون تحجّج وبدون تردد ، لأن
ما يأتي من أولئك أصبح معظماً في النفوس !! وأما ما يأتي في السنة فنفسهم نافرة منه تماماً

، حتى إن أحد الأفاضل يحدثني يقول كنت مرة في متجر أشترى حاجة وثوبي نازل تحت الركبة بشبر تقريباً ، فأحد هؤلاء الشباب دخل عليّ وأصبح يضحك ويسخر ويُسْمَعُني بعض كلمات السخرية ، وما كُملت سنة إلا وأدخل نفس المحل وإذا هو الشاب نفسه عليه بنطال إلى أسفل الركبة بقليل ؛ فذكرته بكلامه لي في المكان نفسه، يقول فاستحيا. فعلى كل حال هذا مصداق لقول النبي عليه الصلاة والسلام ((لتتبع سنن من كان قبلكم شبراً شبراً ذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) . فالواجب على المسلم الذي يخاف الله ﷻ أن يحذر أشد الحذر من التشبه بأعداء دين الله ، وقد قال عليه الصلاة والسلام ((مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ)) وهذا يدل على خطورة التشبه البالغة.

ثم هذا الصنيع الذي حذّر منه عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث وهو التبرك بشجرة أو نحوها لا يزال في بعض المناطق يُصنع ؛ فمنهم من يتبرك بضريح يمسخ ثوبه أو عمامته عليه ضريح أو على جدار أو على باب مسجد ، أحياناً يمر بعض الناس بمسجد معظم له مكانه في النفوس فيكون أمامهم شخص فإذا مر مثلاً بالباب ومسح يده كلهم يتجهون إلى نفس المكان الذي مسحه حتى لا يفوتهم هذا الخير ، وهذا يدل على سرعة هلكة كثير من الناس وأنهم يتبع بعضهم بعضاً بدون تمحيص وبدون تأمل وبدون تعقل وبدون معرفة بالأدلة والبراهين ، وما علم هؤلاء أنهم بهذه الأعمال يخالفون حقيقة دين الله ﷻ ويرتكبون أموراً هي من عظام الأمور ، حتى أن النبي عليه الصلاة والسلام شبّه ذلك بقول أصحاب موسى لموسى ((قتلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)) .

قال رحمه الله تعالى :

[ثم نهض ﷺ فوافى حنيناً ، وهو وادٍ حدور من أودية قحاة . وقد كُنت لهم هوازن فيه وذلك في عماية الصبح ، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد ، فولى المسلمون لا يلوي أحدٌ على أحد ، فذلك قوله تعالى : { ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين } [التوبة: ٢٥] ، وذلك أن بعضهم قال : لن نُغلب اليوم من قلة . وثبت رسول الله ﷺ ولم يفر ، ومعه من الصحابة : أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وعمه العباس وابناه : الفضل ، وقثم ، وأبو سفيان بن

الحارث بن عبد المطلب ، وابنه جعفر ، وآخرون . وهو ﷺ يومئذ راكب بغلته التي أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، وهو يركضها إلى وجه العدو ، والعباس أخذ بحكمتها يكفها عن التقدم ، وهو ﷺ ينوّه باسمه يقول : " أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب " . ثم أمر العباس وكان جهير الصوت أن ينادي : يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب الشجرة ، يا معشر أصحاب السمرة ، فلما سمعه المسلمون وهم فارون كروا وأجابوه : لبيك لبيك ، وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يثني بغيره لكثرة المنهزمين نزل عن بغيره وأخذ درعه فلبسها وأخذ سيفه وثُرسه ويرجع راجلاً إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع حوله عصابة منهم نحو المائة استقبلوا هوزان فاجتلدوا هم وإياهم ، واشتدت الحرب ، وألقى الله في قلوب هوازن الرعب حين رجعوا ، فلم يملكوا أنفسهم ، ورماهم ﷺ بقبضة حصاء بيده ، فلم يبقَ منهم أحد إلا ناله منها ، وفُسر قوله تعالى : {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى } [الأفال:١٧] بذلك . وعندي في ذلك نظر ، لأن الآية نزلت في قصة بدر كما تقدم .

ثم ذكر الإمام ابن كثير أن النبي عليه الصلاة والسلام ((نهض فوافى حنيناً)) ؛ أي وصل إليها .

((وهي وادٍ حدور من أودية قحاة)) ؛ أي : وادٍ منحدر .

((وقد كمنت لهم هوازن فيه)) ؛ أي جعلوا لأنفسهم أماكن مختفية كمنوا فيها ؛ خلف الأشجار ، خلف صخور الجبال .

((وذلك في عماية الصبح)) ؛ كان الوقت الذي دخل عليه الصلاة والسلام الوادي في عماية الصبح ، يعني لم يُسفر جداً ، ففي عماية الصبح لا يرى الإنسان بوضوح بخلاف ما إذا أسفر الوقت فإن الرؤية تكون حينئذ واضحة .

قال : ((فحملوا المسلمين حملة رجل واحد)) ؛ وأيضاً ذكر أنهم فعلوا حيلة وهي : أنهم قدّموا نفرًا منهم وبدؤوا يبادلون الصحابة الرمي ثم فروا ، فانطلق الصحابة في إثرهم سريعاً فتعمقوا في الوادي فكان البقية في المكامن والأخبية ووراء الأشجار فانهاهوا على الجميع بالنبل

، وكان أمراً مفاجئاً ، لأنهم رأوا أن جيشهم قد انهزم وأنهم فروا وهؤلاء انطلقوا في إثرهم ثم فوجئوا بنبل كثيف من الجبال وخلف الأشجار .

قال ((فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد)) ؛ أي لا يلتفت أحد إلى الآخر ، كل على وجهه منطلق فار من النبل والسهم .

قال : ((فذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥])) أي : فررتم وأعطيتم ساحة القتال الدبر فارتين من المكان .

قال : ((وذلك أن بعضهم قال : لن تغلب اليوم من قلة)) ؛ هذا يوضح معنى قوله ﷺ في الآية ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ فبعض المسلمين أعجبه الكثرة الكاثرة لجيش المسلمين وقالوا لن تغلب اليوم من قلة ، وكانت هذه الكلمة صدرت على وجه الإعجاب بالكثرة والعدد ، فأتاهم هذا الدرس العظيم المبارك الذي ينبغي أن يعيه كل مسلم ألا وهو : أن النصر منة الله وفضله ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ١٠] ، ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] . ولهذا حقق الله ﷻ نصر المؤمنين على قلة قليلة صمدوا مع النبي ﷺ .

وفي هذا درس عظيم وبلغ جداً في وجوب التوكل على الله والثقة به وحسن الالتجاء إليه وأن لا يُعجب الإنسان لا بعدد ولا عدة ولا سلاح ولا غير ذلك ، وإنما يتخذ الأسباب ويتوكل على الله ويلتجئ إليه ﷻ ويعتمد عليه وحده .

قال : ((وثبت رسول الله ﷺ ولم يفر ، ومعه من الصحابة : أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وعمه العباس وابناه الفضل وقثم ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر ، وآخرون)) ؛ وتأمل هنا فيمن ثبت مع النبي عليه الصلاة والسلام : أبو سفيان بن الحارث وإسلامه متى كان !! ومر معنا أيضاً قصة إسلامه العجيبة ، وإسلامه قريب لكن يدل هذا الحدث أن الله ﷻ مكن للإسلام في نفسه ومكن له في النصرة للنبي عليه الصلاة والسلام ، فكان باقياً مع النبي عليه الصلاة والسلام وكان من جملة النفر الذين لم يفرؤا .

قال : ((وهو ﷺ يومئذ راكب بغلته التي أهدها له فروة بن نفثة الجذامي ، وهو يركضها إلى وجه العدو)) ذكر هنا بعض أهل العلم ركوبه عليه الصلاة والسلام البغلة في هذه المعركة - ومن المعلوم أن البغلة ليست كالخيل!! الخيل سريع جداً في الكر والفر ، أما البغلة بطيئة عن الخيل في سيرها وسرعتها - فقالوا إن ركوب النبي عليه الصلاة والسلام للبغلة ولم يركب خيلاً إشعار إلى أن دخوله المعركة كله تقدم بثبات وثقة بالله ﷻ ؛ ولهذا لما فر الجميع إلا قلة قليلة كانوا حول النبي عليه الصلاة والسلام لم يرجع بل استمر يتقدم وطلب من العباس أن ينادي - بصوته الجهوري - الأنصار وأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام .

قال : ((والعباس - أي عم النبي عليه الصلاة والسلام - آخذ بحكمتها - الحكمة : اللجام والخطام - يكفها عن التقدم)) ؛ جاء في الصحيحين من حديث البراء أن أبا سفيان هو الآخذ بلجام بغلة النبي عليه الصلاة والسلام ، وجاء في صحيح مسلم من حديث العباس قال : ((وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْفُهَا إِرَادَةً أَنْ لَا تُسْرِعَ ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) . وقد وفق الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى بين الروایتين فقال : " وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بِأَنَّ أَبَا سُفْيَانَ كَانَ آخِذًا أَوَّلًا بِرِمَامِهَا فَلَمَّا رَكَضَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أي جعلها تسرع وتتقدم - إِلَى جِهَةِ الْمُشْرِكِينَ خَشِيَ الْعَبَّاسُ فَأَخَذَ بِلِجَامِ الْبَغْلَةِ يَكْفُهَا ، وَأَخَذَ أَبُو سُفْيَانَ بِالرِّكَابِ وَتَرَكَ اللَّجَامَ لِلْعَبَّاسِ إِجْلَالًا لَهُ لِأَنَّهُ كَانَ عَمَّهُ " .

قال ابن كثير رحمه الله : ((وهو ﷺ ينوه باسمه يقول : "أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب")) ؛ وهذا فيه إعلان أن هذه المعارك كلها دعوة للدين الذي يحمله هذا النبي عليه الصلاة والسلام والنصرة له ، وأن هذا القتال ليس له غرض إلا إعلاء دين الله الذي بُعث به هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ؛ فهو نبي لا كذب ، بل هو نبي صادق مرسل من رب العالمين .

قال ((ثم أمر العباس وكان جهير الصوت أن ينادي : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب الشجرة ، يا معشر أصحاب السمرة)) ؛ أصحاب السمرة يعني أهل بيعة الرضوان ، ويذكرهم بهذه النداءات "الأنصار ، أصحاب الشجرة ، أصحاب السمرة" بمعاني عظيمة ، وعرفنا أنهم تحت شجرة الرضوان التي حصل تحتها البيعة بايعهم عليه الصلاة

والسلام على القتال ، فكأنه ﷺ وهو يقول " يا أصحاب الشجرة " يذكّرهم بتلك المبايعة التي تمت منهم مع رسول الله ﷺ للقتال .

((فلما سمعه المسلمون وهم فارون كروا وأجابوه)) ؛ وهذا فيه أن الذكرى تنفع وأن الوعد ينفع ، وأن الإنسان قد يقع في تفريط أو في تقصير فإذا جاءته موعظة من ربه رجع وعاد ، لا يلزم أن يستمر في غلظه .

((كروا وأجابوه: لبيك لبيك)) : أي استجبنا ، لأن لبيك معناها استجابة .

((وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يثني بغيره لكثرة المهزمين نزل عن بغيره وأخذ درعه فلبسها وأخذ سيفه وثرسه ويرجع راجلاً إلى رسول الله ﷺ)) ؛ كان الواحد منهم إذا لم يستطع أن يجعل بغيره يرجع - لأن البعير مع الإبل الأخرى يفر معها فقد لا يستطيع صاحبه أن يثنيه ليرجع - ينزل عن بغيره ويأخذ درعه فلبسها ويأخذ سيفه وثرسه ويرجع راجلاً أي على قدميه إلى رسول الله ﷺ .

((حتى إذا اجتمع حوله عصابة منهم نحو المائة)) ؛ انظر العدد الذي جاوز العشرة آلاف صفى منهم مئة!! .

قال : ((استقبلوا هوازن)) ؛ مئة استقبلوا هوازن !! وأجرى الله ﷻ النصر على يد هذه القلة و ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

((فاجتلدوا هم وإياهم واشتدت الحرب ، وألقى الله في قلوب هوازن الرعب حين رجعوا ، فلم يملكوا أنفسهم)) ؛ دخل في قلوبهم خوف ورعب ، وإذا ألقى في قلب العدو الرعب انهزم وفر .

قال : ((ورماهم ﷻ بقبضة حصباء بيده)) ؛ أخذ حصباء من الأرض ورمها إلى جهتهم .

((فلم يبقَ منهم أحد إلا ناله منها)) ؛ وجاء في بعض الروايات أنه ﷺ قال ((شَهِتَ الْوُجُوهُ)) ، وأيضاً جاء أنه قال : ((انْهَزْمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ)) يقسم بربه ﷻ الذي النصر بيده ﷻ .

وفي هذا المقام أنزل الله ﷻ السكينة على قلوب المؤمنين وأنزل جنداً من جنده ﷻ كما قال : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [التوبة: ٢٦] .

قال رحمه الله : ((وفسر قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧] بذلك)) ؛ أخذ الحصباء من الأرض ورماها فقال الله ﷻ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ .

ولاحظ هنا في الآية إثبات رمي وفيها أيضاً نفي رمي !! قال ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ هذا نفي ، قال ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ هذا إثبات ، فنفي رمياً وأثبت رمياً في الوقت نفسه ، وإذا أثبت الشيء ونفي نفسه في النصوص فالمثبت غير المنفي ؛ هذه قاعدة عند أهل العلم ، فأخذ الحصباء ورميها بيده الشريفة صلوات الله وسلامه عليه في وجوه العدو هو الرمي المثبت للنبي عليه الصلاة والسلام ، أما التسديد والإصابة وهو أنه لم يبق أحد منه إلا أصابه من هذه الحصباء فهو الرمي المنفي . وضّح هذا المعنى ابن القيم في كتابه الزاد قال : " إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَثَبَّتَ لِرَسُولِهِ ابْتِدَاءَ الرَّمْيِ وَنَفَى عَنْهُ الْإِيصَالَ الَّذِي لَمْ يَحْصُلْ بِرَمْيَتِهِ ، فَالرَّمْيُ يُرَادُّ بِهِ الْحَذْفُ وَالْإِيصَالُ " ، فالحذف فعل النبي عليه الصلاة والسلام ، والإيصال تسديد الله وتوفيقه ﷻ .

قال الحافظ ابن كثير : ((وفسر قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ بذلك)) يعني بهذه الرمية التي كانت من النبي عليه الصلاة والسلام . قال ((وعندي في ذلك نظر ، لأن الآية نزلت في قصة بدر كما تقدم)) .

قال رحمه الله تعالى :

[وتفر هوازن بين يدي المسلمين ، ويتبعونهم يقتلون ويأسرون ، فلم يرجع آخر الصحابة إلى رسول الله ﷺ إلا والأسارى بين يديه ، وحاز ﷺ أموالهم وعبائهم . وانحازت طوائف من هوازن إلى أوطاس ، فبعث ﷺ إليهم أبا عامر الأشعري واسمه عبيد ومعه ابن أخيه أبو موسى الأشعري حامل راية المسلمين في جماعة من المسلمين ، فقتلوا منهم خلقاً .

وُقُتِلَ أمير المسلمين أبو عامر ، رماه رجل فأصاب ركبته فكان فيها حتفه ، فقتل أبو موسى قاتله ، وقيل : بل أسلم قاتله بعد ذلك ، وكان أحد إخوة عشرة قتل أبو عامر التسعة قبله ، فالله أعلم . ولما أخبر أبو موسى رسول الله ﷺ بذلك استغفر ﷺ لأبي عامر . وكان أبو عامر رابع أربعة استشهدوا يوم حنين ، والثاني أيمن بن أم أيمن ، والثالث يزيد بن زمعة بن الأسود ، والرابع سراقبة بن الحارث بن عدي من بني العجلان من الأنصار ﷺ . وأما المشركون فقتل منهم خلق كثير ، وفي هذه الغزوة قال ﷺ : " من قتل قتيلاً فله سلبه " في قصة أبي قتادة ؓ [.

قال رحمه الله تعالى : ((وتفر هوازن بين يدي المسلمين)) ؛ أعطوا المسلمين أكتافهم فارين منهزمين .

قال : ((ويتبعونهم يقتلون ويأسرون)) ؛ أي المسلمون يتبعون هوازن يقتلون ويأسرون . ((فلم يرجع آخر الصحابة إلى رسول الله ﷺ إلا والأسارى بين يديه ، وحاز ﷺ أموالهم وعبائهم)) ؛ وكانت أعداد كبيرة جداً - بالآلاف - من السبي والأموال والإبل والماشية . ((وانحازت طوائف من هوازن إلى أوطاس)) ؛ أوطاس : وادي في ديار هوازن انحازوا إليه . ((فبعث ﷺ إليهم أبا عامر الأشعري)) ؛ يعني الذين انحازوا وذهبوا إلى أوطاس بعث إليهم أبا عامر الأشعري في عدد من الصحابة ، وطائفة منهم فيهم رئيسهم مالك ابن عوف النصري فروا فلجئوا إلى الطائف فتحصنوا بها كما سيأتي في غزوة الطائف عند المصنف .

قال : ((أبا عامر الأشعري واسمه عبيد)) ؛ عبيد بن سليم الأشعري ؓ . ((ومعه ابن أخيه أبو موسى الأشعري حامل راية المسلمين في جماعة من المسلمين)) . ((فقتلوا منهم خلقاً - يعني في أوطاس - وُقُتِلَ أمير المسلمين أبو عامر ، رماه رجل فأصاب ركبته فكان فيها حتفه)) .

قال : ((فقتل أبو موسى قاتله)) ؛ قدّم هذا القول لأنه هو الأقوى . قال : ((وقيل : بل أسلم قاتله)) ؛ هذا القول جاء في رواية ابن إسحاق في المغازي ، وفي الإسناد انقطاع وجهالة ، والقول الأول - أن أبا موسى الأشعري قتل قاتله - هو الصحيح

كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري نفسه ﷺ قال : ((فَلَحِقْتُهُ .. فَاحْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ)) .

قال : ((ولما أخبر أبو موسى رسول الله ﷺ بذلك استغفر ﷺ لأبي عامر)) ؛ أبو عامر ﷺ لما أتته تلك الإصابة وشعر أنه في الموت أعطى الراية لأبي موسى الأشعري وطلب منه أن يبلغ سلامه للنبي عليه الصلاة والسلام ويطلب من النبي ﷺ أن يستغفر له ، قال : ((أَقْرِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّلَامَ ، وَقُلْ لَهُ : اسْتَغْفِرْ لِي)) ، فلما رجع أبو موسى الأشعري بلغ الرسالة للنبي عليه الصلاة والسلام قال : " يقرؤك السلام ويطلب منك أن تستغفر له " ، فاستغفر له النبي عليه الصلاة والسلام ، جاء في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام ((دَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدِ أَبِي عَامِرٍ» ؛ وهذا فيه أن الوضوء ورفع اليدين من آداب الدعاء ، فالنبي عليه الصلاة والسلام اختار في الدعاء هذه الحالة الكاملة . فقال أبو موسى ((وَلِي فَاسْتَغْفِرْ)) فاستغفر النبي ﷺ لأبي موسى .

قال : ((وكان أبو عامر رابع أربعة استشهدوا يوم حنين ، والثاني أيمن بن أم أيمن ، والثالث يزيد بن زمعة بن الأسود ، والرابع سراقبة بن الحارث بن عدي من بني العجلان من الأنصار ﷺ)) .

قال : ((وأما المشركون فقتل منهم خلق كثير)) .

قال رحمه الله : ((وفي هذه الغزوة)) أي غزوة حنين .

((قال ﷺ : " من قتل قتيلاً فله سلبه ")) ؛ والحديث في الصحيحين . السلب : هو ما يكون مع المقتول من المشركين من سلاح وعتاد ونحو ذلك ؛ يكون ذلك لقاتله .

((في قصة أبي قتادة ﷺ)) لأنه قتل قتيلاً وتركه ، ثم لما سمع بالنبي عليه الصلاة والسلام يقول ذلك أتى بالشهود الذين يشهدون أنه هو الذي قتله ، فسأل النبي ﷺ من الذي أخذ سلبه ؟ فقال رجل أنا يا رسول الله ، فطلب منه عليه الصلاة والسلام أن يأتي بسلبه وأن يعطيه للصحابي الجليل أبي قتادة ﷺ .

قال رحمه الله تعالى :